Türkiye Diyanet Vakfı
Kütüphanesi
...rmaları Merkezi

سيف الدولة الحمداني

أو

مملكة السيف ودولة الأقلام

الدكتور مصطفى الشكعة
أستاذ الأدب العربي والدراسات الإسلامية
جامعة عين شمس - القاهرة

الناشر

عالم الكتب - بيروت
مكتبة المتنبي - القاهرة

الإهداء

إلى أخي البطل الشهيد كمال الدين صلاح

لقد كنت يا أخي عظيماً في كفاحك ، عظيماً في استشهادك ، متفانياً في حب وطنك الكبير إلى آخر رمق في حياتك

ولما كانت سير العظماء تُهدى إلى العظماء ، فإني أهدي إلى روحك الطاهرة في عالم الخلود هذه السيرة العطرة .

مصطفى الشكعه

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

حين اعتزمت إصدار هذه الطبعة من « سيف الدولة الحمداني » بدا لي أن أجري في الكتاب بعض التعديلات ، وأن أضيف بعض الزيادات التي رأيتها ضرورية لكتاب يتناول شخصية ملك عربي جليل ، ويعالج عصراً مفعماً بكل أسباب النماء العلمي والنتاج العقلي ، والتطور الأدبي ، حافلاً بأمجاد حربية عربية وانتصارات عسكرية إسلامية ، ثرياً بكوكبة عظيمة من العلماء والكتاب والشعراء الذين اعتلى بعضهم قمة الشهرة وذروة المجد ، وبعض آخر جانبهم الحظ فلم ينالوا ما هم أهل له من احتفال على الرغم من إسهامهم المحمود في مسيرة الأدب العربي وتطويره .

في ضوء هذه الحقائق قررت أن أقسم الكتاب إلى قسمين : قسم يتناول مملكة سيف الدولة تاريخياً وجغرافياً وسياسياً وحربياً ، وهذا القسم لم يحفل بجديد ، وقسم يتناول مملكة سيف الدولة اجتماعياً وأدبياً وعلمياً . وهذا القسم الثاني من الكتاب هو الذي حفل بالكثير من الإضافات التي رأيناها ضرورية لمن ينشد الإلمام الشامل بالحركات الأدبية والفكرية في مملكة حلب .

إنه من الشائع المعروف أن مملكة سيف الدولة كانت ملاذاً لمشاهير شعراء العربية في القرن الرابع الهجري ، ولكن قليلون أولئك الذين يعرفون أن المملكة الصغيرة الباسلة قد ضمت عدداً من الكتاب الحاذقين ، كما نشأ في رحابها أشهر خطباء العربية في القرن الرابع الهجري، بل أشهر من جرت على لسانه خطب الجهاد والحض على مغالبة الأعداء واستحباب الشهادة في سبيل الله .

ومن ثم كان هذا دافعاً لي أن أجعل من القسم الثاني من هذا الكتاب—في نطاق منهجه الجديد — فصلاً للحديث عن الحياة الاجتماعية ، وآخر لندوة الشعر وكبار الشعراء وألوان التجديد التي صادفتها موضوعات الشعر الحمداني،

وبخاصة شعر الحرب ، وشعر الحكمة ، وشعر الطبيعة ، وشعر الديارات ، وشعر الروميات .

ومن الشعر انتقلنا إلى النثر ، وإذا كانت بغداد والري وأصبهان ونيسابور قد استأثرت بالكتابة والكتاب نتيجة لاحتفال مؤرخي الأدب بهذه البلدان دون غيرها ، فليس معنى ذلك أن كلاً من حلب والموصل والفسطاط والقاهرة قد خلت من كتاب مرموقين حاذقين مجددين ، ولذلك أنشأنا فصلاً جديداً للكتابة والكتاب في ظل مملكة بني حمدان ، قدمنا فيه نماذج مما دبّجته يراع كتاب سيف الدولة ، وخصصنا أبا الفرج الببغاء بالعناية لتيسر الحصول على ألوان متنوعة من حصاد قلمهونتاج قريحته .

هذا ولما كان عهد الدولة الحمدانية قد اختص دون غيره من العهود السابقة عليه إلى حدود القرن الثاني الهجري بأشهر خطباء العربية آنذاك ، وهو أبو يحيى ابن نباته الفارقي وولده أبو طاهر ؛ وكان أبو يحيى ممن أسهم بخطبه إسهاماً إيجابياً في دفع الجيوش الحمدانية إلى ساحة القتال واستجلاب النصر ، فقد خصصنا فنه بدراسة مستقلة جعلنا منه فصلاً بذاته ، عالجنا من خلاله فنه الخطابي علاجاً موضوعياً ، واستعرضنا جانباً من خطبه الجهادية دون غيرها ، ذلك أن موضوعات خطبه الأخرى على نفاستها مما لا يتمشى وغرض هذا الكتاب .

وإذا كان قد غاب عن فكر العديد من الدارسين أن عصر سيف الدولة قد حفل بالكثير من المؤلفين ، وغني بالعديد من المؤلفات النفيسة النادرة في موضوعاتها ، فقد كان ذلك مشجعاً لنا على أن نخص التأليف بفصل مستقل ، وأن نستعرض بعض الكتب ذات الموضوعات الطريفة كأنموذج لمناهج المؤلفين وطرائقهم آنذاك في التأليف ، وقد اخترنا كتاب « أدب النديم » لكشاجم كأنموذج لفن التأليف الأدبي الاجتماعي في ذلك العصر .

إنني أرجو أن أكون قد أسهمت في هذه الطبعة بجهد متواضع يتفق وجلال الملك العربي الأديب الفارس المحارب الشجاع سيف الدولة بن حمدان صاحب مملكة السيف ودولة الأقلام .

مصر الجديدة في ١٥ رمضان المكرم سنة ١٣٩٧ هـ
٢٩ أغسطس سنة ١٩٧٧ م

مصطفى محمد الشكعة
استاذ الأدب العربي
والدراسات الإسلامية
وعميد كلية الآداب بجامعة عين شمس — القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الأولى

لعلنا في هذه الفترة الحاسمة من تاريخ أمتنا التي تلاحقها وتطاردها أطماع تأتي من الغرب تارة ومن الشرق تارة أخرى، في حاجة لأن نتبصر موقفنا على ضوء تراثنا الماجد، وماضينا الخالد، بما حوى من حضارات، وبما أنجب من رجالات ، كانوا حفاظاً على كيان هذه الأمة وحراساً على استقلالها ، فحاربوا في ظل إيمانهم بوطنهم ، وصمدوا ، وخاضوا الغمار ، وانتصروا ، فكان صمودهم في وجه الأعداء بقاء لهذا الوطن ، وكان انتصارهم إبقاء على تلك المعاني السامية الماثلة في أعماقنا الكامنة في جوهرنا ، فخرجنا من أكثر ما أصابنا من محن متماسكين ظافرين ، كالمعدن الكريم الذي يخرج من النار أكثر ما يكون صفاء ، وأحسن ما يكون نقاء .

ورجالات هذه الأمة الذين عاشوا في تاريخها ، وأسهموا في الإبقاء عليها ، وأبلوا البلاء الحسن في الحفاظ عليها ، من الكثرة بمكان . ولكل منهم صفحته بل صفحاته ، وصنيعه بل صنائعه ، ومن بين هؤلاء ، الأمير علي بن أبي الهيجاء المعروف بسيف الدولة الحمداني .

وسيف الدولة بطل من أبطال الأمة العربية في القرن الرابع الهجري حين بدأت أطماع البيزنطيين تتجه نحو الشرق العربي محاولة الاستيلاء على جانب

من أراضيه لضمها إلى الدولة البيزنطية القوية التي كانت تعيش في آسيا الصغرى وأوربا ، حيث تعيش الجمهورية التركية في هذه الأيام .

وكان سيف الدولة بطلاً مظفراً وقائداً موهوباً ، متصفاً بالأخلاق العربية ، متسماً بالجرأة والشجاعة ، فالتقى بالجيوش البيزنطية الكثيفة المجهزة أحسن تجهيز تحت قيادة أبرع وأعتى القواد البيزنطيين من أمثال برداس فوكاس ونيسيفور (نقفور) فوكاس ، فكان يصدّهم وينتصر عليهم ويوقع بهم شر الهزائم ، ولم يقف الأمر بسيف الدولة عند حد صد الجيوش المعتدية الغازية وحسب ، بل إنه نقل المعارك إلى أرض الروم وأخذ يخرج للغزو مرتين أو أكثر كل عام ، مرتبعاً ومصطافاً وأحيـاناً شاتياً يحطم القلاع ويقتلع الحصون ويحتل المدن ويعود بالأسلاب والغنائم والسبايا ، فأوقع الرعب في قلوب الروم ، وأمن حدود إمارته من ناحية، وثبت حدود المملكة الإسلامية من ناحية أخرى ، وألقى على مهاجمي ديار العرب دروساً قاسية بما أوقع بهم من هزائم . وبما قتل من جنودهم وبما أسر من بطارقتهم وقوادهم ، حتى إن أحد قوادهم الكبار اضطر بعد موقعة كبرى هزم فيها رغم عشرات الآلاف من الجنود الذين جندهم من مختلف البلاد الأوربية والآسيوية ، اضطر ذلك القائد وهو برداس فوكاس أن يترهب ويدخل الدير نتيجة للهزائم المتوالية التي أوقعها به جيش العرب تحت قيادة سيف الدولة الأمر الذي كان مادة طريفة لشعراء العرب ، فصوروا تلك الحادثة تصويراً جميلاً كما سيأتي فيما يلي من فصول .

وسيف الدولة رغم خوضه هذه المعارك المريرة لم يخرج مرة على تقاليد الحرب ، ولم يغدر ، أو يعذب الأسرى أو يقتل النساء والأطفال فقد كان إنساناً متحلياً بأخلاقه العربية السمحة، حتى إنه كان يعالج بنفسه بعض أسراه من أبناء أعدائـه .

فإذا ما اضطر أن يحارب الخارجين عليه من القبائل العربية التي كانت تشغب من حين لآخر ، كان كريماً في تأديبهم . رفيقاً بأبنائهم ونسائهم ، ثم لا

يلبث أن يعفو عنهم متى اطمأن إلى توبتهم ، وكذلك الحال في حروبه الأخرى مع الأخاشدة الذين انتزع منهم «حلب» وأنشأ فيها ملكه ، وحاول أن ينتزع منهم دمشق لفترة قصيرة من الزمان .

وإذن فقد لعبت مدينة حلب عاصمة سيف الدولة دوراً خطيراً في تاريخ العرب والمسلمين ؛ فقد كانت هي وثغورها بمثابة الدرع الحصينة التي حمت أرض المسلمين من العدوان الغربي التقليدي ، والصخرة العتيدة التي عليها انحطمت أكثر المحاولات التي قام بها البيزنطيون للاعتداء على استقلال الإمارة العربية بصفة خاصة ، والدولة الإسلامية بصفة عامـة ، فأخذوا يراجعون أنفسهم عدة مرات قبل كل اعتداء أو ثأر لمعركة هزموا فيها .

فإذا ما تركنا الجانب الحربي عند سيف الدولة إلى الجانب الإنساني وجدناه إنساناً كريم اليد ، أديباً شاعراً ، له مشاركة في علوم اللغة والفلسفة ، مشجعاً للأدباء والشعراء حتى حفلت عاصمته بأشهر مجموعة عرفها الأدب العربي مجتمعة في مكان بعينه في عصر من العصور ، مثل المتنبي وأبي فراس والسريّ الرفاء والخالديين والوأواء الدمشقي والنامي والببغاء وأبناء ورقاء والصنوبري وكشاجم والزاهي والناشي الأصغر والسلامي وابن نباتة السعدي من الشعراء ، وأبي الطيب اللغوي والحسين بن خالويه وابن جني وأبي علي الفارسي وأبي بكر الخوارزمي من الأدباء وفيلسوف المسلمين أبي نصر الفارابي من الفلاسفة ، وهكذا كانت حلب تموج شعراً وتتضوع بالمعرفة وتتجلى في ظل حضارة فكرية مترفة بفضل ذلك الأمير الجليل .

وكثيراً ما جرت مساجلات أو حدثت مشاحنات بين الشعراء بعضهـم وبعض ، أو بين الشعراء والعلماء مما أثرى أدبنا وأخصب تاريخنا وعمق جذور قوميتنا في أصول التاريخ فأصبحنا أمام الأمم رجال حرب وسلام ، ونتاج حضارة ومعرفة لا في عصر سيف الدولة وحده ، ولكن فيما سلف من عصور قبله وما تلا من عصور بعده .